عالة على الحياة

كان الكثيرون ينظرون لي بتعجب، كيف لهذه المجنونة أن تحدث رضيعها هكذا وكأنه كبير يفهم ويعقل ما تقول؟ كيف تأخذه معها في كل مكان _حتى اجتماعات العمل_ ألا تخاف أن يبكي أو يصرخ أو يحرجها أمام الناس؟ كانت لي وجهة نظر أخرى! كنت أتساءل كيف سيعرف «آدم»، إذا لم أخبره؟ كيف سيتعلم الانضباط، إذا لم يأخذ فرصًا عديدة في التدريب عليه؟ كيف سيفهم الآداب العامة والسلوكيات المقبولة، إذا لم يرها؟

من أكثر أخطاء التربية التي أشارت إليها د.«ماريا مونتيسوري» في مذكراتها وكتبها هي التعامل مع الطفل كأنه «عالة» على الحياة وليس جزءًا منها! الكثير من الآباء والأمهات ليس لديهم الوقت أو الصبر للشرح المبسط المفصل، والكثير من الأطفال يتم معاملتهم وكأنهم أشياء وليسوا أشخاصًا. العديد من الأمهات، مثلًا، يشتكين من تصرفات الطفل المزعجة في السوبر ماركت وبسبب هذا الإزعاج قررن ترك الطفل في المنزل أثناء شراء احتياجاتهن الأسبوعية أو الشهرية. لماذا يسيء الطفل التصرف؟ هل قرار الأم الحل الأفضل؟

تخيلوا معي طفلًا جالسًا على الأرض يلعب، وفجأة تمت مقاطعته بدون استئذان، وتم

حمله، وتم تغيير ملابسه، ثم وجد نفسه خارج المنزل. تم وضعه في السيارة، وبعد وقتٍ ما، وجد نفسه أمام السوبر ماركت. تم وضعه في عربة التسوق، وبدأت الأم جولتها الشرائية، وبدأ الطفل تصرفاته المزعجة.

تصرفات الطفل تلك لا تعبر عن «قلة أدبه» بل هي تعبير عن وجوده وعن احتياج عقله للعمل. لقد أخطأت هذه الأم عند مقاطعة عمل الطفل _لعبه_ فجأة، ثم أخطأت عندما لم تسأله إذا كان يريد الذهاب معها إلى السوبر ماركت، ثم أخطأت عندما لم تشرح له لماذا سيذهبان للسوبر ماركت، ثم أخطأت عندما وضعته في عربة التسوق وتركت الملل وعدم المعرفة يسيطران عليه.

استكمالًا لمثال السوبر ماركت قبل الذهاب، عليكم بالتوضيح للطفل بلغة بسيطة أهمية «المشوار»:

«انظر! لقد نفد البيض!» أو «لم يعد لدينا طماطم!» أو «لم يتبقَ سوى ثلاث تفاحات!»

هكذا يستطيع الطفل أن يدرك المشكلة، وهكذا يختار التعاون بدلًا من المقاومة والتمرد.

ثم عليكم بكتابة قائمة بالمشتريات التي يحتاجها البيت، واطلبوا من الطفل المشاركة في القائمة من خلال سؤاله أكثر من مرة عما يجب إضافته لها. هذا سوف يعوده على الملاحظة والتذكر والمشاركة الإيجابية. أخيرًا، أعدوا له قائمة خاصة به، تتكون من اسم وصورة المنتج، وبجانبه مربع صغير؛ مثلًا، برتقال وبجانب الكلمة صورة لبرتقالة وبجانب الصورة مربع صغير. خلال الجولة في السوبر ماركت تكون مهمة الطفل المساعدة في التسوق واستخدام القلم في حذف المنتج الذي تم شراؤه.

إذا كان الطفل أقل من عام، اكتفوا بالإشارة إلى الأشياء وذكر أسمائها. إذا كان عمره بين عام وعامين، قوموا بتغليف قائمة المشتريات الخاصة به حتى لا يمزقها. إذا كان الطفل يستطيع السير لا تضعوه في عربة التسوق! دعوه يسير أمامكم بالقائمة الخاصة به، ودعوه يشير إلى المنتجات المطلوبة. اطلبوا منه أن يساعدكم في انتقاء المنتجات الطازجة، ودعوه يراجع معكم تاريخ الصلاحية. اطلبوا منه أن يساعدكم في وزن أكياس الخضراوات والفاكهة، وتحدثوا بصوت عالٍ حتى يسمع ويفهم ويتعلم. عندما يكبر الطفل أعطوه المزيد من المسئوليات

والكثير من الثقة وشجعوه على طرح الأسئلة.

انتهزوا الفرصة وتحدثوا عن القيمة الغذائية للخضراوات والفاكهة الطازجة واطلبوا منه أن يشير إلى الغذاء الصحي، مفرقًا بينه وبين الطعام المضر بالصحة. اشرحوا الفرق بين الطعام الطازج والمجمد والمعلب. يمكنكم استغلال الزيارات المتكررة إلى السوبر ماركت في شرح المواسم من خلال الخضراوات والفاكهة الموسمية. هناك العديد من الدروس التي سوف يتعلمها الطفل من خلال المشاركة في مهام الحياة اليومية، وأولها المسئولية وأهمية دوره كفرد من أفراد العائلة.

يمكنكم استخدام هذه الطريقة في أي موقف يتصرف فيه الطفل بإزعاج! لا تختاروا الطريق الأسهل وتتركوا الطفل في المنزل أو مع أحدهم! لا تعتادوا الهروب منه، ولا تضعوه على هامش الحياة! تذكروا أن الطفل المزعج، ليس إلا طفلًا يشعر بالإهمال، وأن الطفل الزهقان زنان، وأن دوركم هو إشباع شغفه بالمعرفة، ومساعدته في التعبير عن نفسه ومشاعره.

بهذه المناسبة، أود أن أشارككم اختراعات حديثة تضر بالطفل – وأنتم لا تعلمون!

لا أعلم تحديدًا في أي لحظة في تاريخ البشرية تم التشويش على الفطرة والغريزة في العلاقة بين الأم وطفلها. كيف تمكنت شركات تصنيع ألعاب الأطفال من إقناع الأمهات بمزايا هذه المنتجات؟ أقرأ في كتب «آدم» عن حياة الإنسان البدائي، وأجد الأطفال يلعبون ويزحفون ويَحْبون ويجرون بين الأمهات، داخل المنزل وفي فناء المنزل وأمام الحظائر ووسط الحقول. تحمل الأم طفلها وترضعه وتلعب معه وتغني له وتحدثه وتدعه يستكشف حتى يكبر – هكذا بكل بساطة كانت الأمومة والطفولة. اليوم، أكبر عقبة في نمو الطفل الحركي والعقلي والعاطفي واللغوي هي أمه! كيف تحولت الأم إلى عقبة؟

هذه بعض الاختراعات التي تضر بنمو الطفل في أعوامه الثلاثة الأولى:

السور

ما هو؟ هو سور أنيق ملون تستخدمه الأم «لتأمين الطفل». يتم تسوير منطقة ما في المنزل

ووضع بعض الألعاب بداخلها ثم ترك الطفل خلف السور مثل الحيوان الحبيس. لأن فطرة الإنسان الحرية وغريزته تدفعه للاستكشاف، يبكي الطفل ويحاول الهروب من سجنه، وكلما نجح أو كلما أوشك أن ينجح، تعيده الأم خلف السور مرة أخرى.

هذا السور كارثة إنسانية تحول الطفل من إنسان لحيوان حبيس. هذا السور لا يؤمن شيئًا سوى المنزل والتحف! هذا السور ينمو في وجدان الطفل ليتحول إلى حاجز فعلي بين الطفل وأهله في أعوامه المقبلة مما يجعل تربيته وتهذيبه من أصعب ما يكون.

الرباط

هل تخافين على طفلك أن يختطف؟ هل تخافين أن يتوه منك؟ هل الحل الأمثل هو أن تربطيه؟ هذا هو منطق «الرباط». تمامًا مثلما يفسح الرجل كلبه وهو ممسك بحبله، تخرج الأم بطفلها وهو مربوط. هل فكر أحد يومًا كيف يكون شعور الطفل المربوط؟ هل فكر أحد يومًا في تأثير هذا الرباط على العلاقة بين الأم وطفلها؟

هذه كارثة إنسانية أخرى تبرمج عقل الطفل على التمرد على الأهل وعلى الهروب منهم. في العقل غير الواعي تتحول الأم إلى قيد ويكبر الطفل على كسر القيد!

كرسي الطعام

يجلس الطفل عاليًا مقيدًا بالأحزمة، ممنوعًا من الحركة، فاقدًا القدرة على تقرير مصيره، وأمامه الطعام ليأكله أو ليؤكله له شخص بالغ. هذا الكرسي انتهاك صريح لحق الطفل في اختيار متى يأكل ومتى ينتهي من الأكل واختيار ما سيأكل. هذا الكرسي يمنع الطفل من المشاركة ومن الاستمتاع بالطعام ويتحول الكرسي إلى سجن ويتحول الطعام إلى صراع ويتعلم الطفل التعبير عن رفضه برمي الطعام والبكاء والصراخ.

الكرسي الهزاز

ولد «آدم» طفلًا باكيًا صارخًا متمردًا، وكنت دائمًا أحمله وأهزهزه وأسير به مثل أمهات عصور ما قبل الحضارة. أشفقت عليَّ أمي من المشقة، واشترت لنا «كرسي هزاز» للأطفال. فكرة الكرسي الهزاز بكل بساطة: يجلس الطفل فيه، تربطه الأم بأحزمة الأمان حتى لا يهرب

ويهتز الكرسي برفق حتى يصمت الطفل أو ينام أو ييأس. حاولت أن أجرب الكرسي ورفضته غريزتي ورفضه «آدم». أين دفء جسدي؟ أين دقات قلبي؟ أين رائحتي؟ أين صوتي؟ كيف يعطي هذا الكرسي الطفل ما يحتاجه؟

الكارثة الأكبر أن هذا الكرسي يأتي ومعه تعليمات واضحة أنه ممنوع ترك الطفل في الكرسي أكثر من 15 دقيقة، وألا يترك الطفل فيه بدون إشراف شخص بالغ. هذا الكرسي قادر على إحداث أضرار بالعمود الفقري الصغير وقادر على قتل الطفل إذا ترك مربوطًا فيه بدون إشراف!

كرسي السيارة

كرسي السيارة مهم لسلامة الطفل ولا غنى عنه ولكن هل تعلمون أن جلوس الطفل في كرسي السيارة لفترات طويلة يعرضه لتشوهات العمود الفقري، ويقلل وصول الأكسيجين لجسده بسبب الضغط على صدره وقد يسبب ارتجاع المريء.

هل تعلمون أن أقصى مدة للطفل بعمر عامين، في كرسي السيارة هي 30 دقيقة؟ هل تعلمون أن أطول رحلة للطفل بعد عامه الثاني لا يجب أن تتعدى ساعتين؟

الألعاب التي تغني

الهدف من الغناء للطفل هو تنمية مهاراته الاجتماعية واللغوية، ولهذا غنت الأمهات لأطفالهن لسنوات طويلة بلا كلل أو ملل. اليوم تلجأ الأمهات للأغاني المسجلة وللألعاب التي تغني للطفل لتقوم بهذا الدور بدلًا منها.

الخسائر: ضعف العلاقة بين الأم والطفل وعدم نمو الطفل اجتماعيًّا ولغويًّا، لأن التسجيلات لا تعلم الطفل أي شيء، وتشتته وتضعف قدرته على التركيز، وتحوله إلى متلقٍ سلبي بدلًا من التفاعل المنشود في اللعبة الأصلية بين الأم والطفل.

في النهاية، أود أن أذكر كل أم أن شخصية الطفل ورؤيته للعالم من حوله وأساس علاقتك به تتكون في أول ثلاث سنوات من عمره. يتعلم الطفل في هذه الفترة من حياته من خلال «عقله الماص»، هذه الإسفنجة التي تمتص كل المعلومات الحسية من حوله، وتخزنها في مخه

ليبني عليها في أعوامه القادمة. في سنواته الثلاث الأولى يمتص الطفل التجارب التي يمر بها والأصوات والألوان والروائح والمذاق والتلامس والمشاعر والمشاهد، وهكذا تتسع مداركه وتنمو مهاراته وتتكون شخصيته. دوركم في هذه المرحلة هو توفير بيئة صديقة له يتحرك فيها بحرية وبدون قيود، بدلًا من منعه والتحول إلى عقبة في طريقه.

بما أننا تحدثنا عن الاختراعات، هيا بنا نتناول الخرافات الشائعة عن التربية!

الخرافة الأولى: ترك الرضيع يبكي يقوي رئتيه.

ترك الرضيع يبكي يعلمه منذ ميلاده أنك لا ولن تسمعه. لا ولن تفهمه. لا ولن يعتمد عليك، لأنك خذلته في أيامه وشهوره وسنواته الأولى! ترك الرضيع يبكي يقلل من ذكائه في طفولته المبكرة ويزيد من تمرده ونقمته في مراهقته ويفقده القدرة على التحكم بانفعالاته في شبابه! ترك الرضيع يبكي جريمة في حق الأمومة! لا تتركي طفلك يبكي وحده!

الخرافة الثانية: ما دام الرضيع شبعان ونظيفًا اتركه يبكي.

قد لا يستطيع الرضيع التعبير عن نفسه بكلمات أو إشارات لكن هناك أسبابًا كثيرة لبكاء الطفل غير الجوع والبلل! قد لا نعرف أبدًا أسباب بكاء طفلك ولكن ما نعرفه أن طفلك يحتاج حضنك حتى وهو يبكي.

الخرافة الثالثة: لا تحمل الطفل حتى لا يفسد.

الإهمال يفسد الطفل! اللامبالاة تفسد الطفل! تجاهل الاحتياجات الفطرية الطبيعية المرحلية يفسد الطفل! يحتاج الطفل الرضيع إلى الحضن دائمًا حتى وهو نائم! يحتاج الطفل في عامه الأول أن يذهب معك في كل مكان وألا تضعيه أرضًا وتتركيه لأنك محور عالمه كله! تركك لطفلك هكذا وتجاهل احتياجاته يجعل منه طفلًا زنانًا باكيًا حزينًا مدمرًا. سوف تدفعين ثمن رفضك لتلبية احتياجات طفلك في أعوامه الثلاثة الأولى بقية عمرك بدون مبالغة.

الخرافة الرابعة: يجب على الطفل أن ينام مستقلًا (منذ الميلاد/ بعد ستة أشهر).

ينام الطفل مثلما يحتاج! معظم الأطفال يحتاجون أن يناموا بجانب الأم لعدة أعوام حتى

ينتقلوا إلى حجرتهم الخاصة. هذا هو الطبيعي! لماذا؟ في البداية يحتاج الطفل إلى أن يرضع كثيرًا أثناء الليل ويشعر بالأمان والسكينة وهو يسمع نفس أمه ويشم رائحتها. بعد ذلك يبدأ الطفل في رهاب النوم! يبكي الطفل ويقاوم النوم والنعاس بكل الطرق والسبب هو الخوف! يخاف الطفل من النوم. يخاف لحظة أن تغمض عينه. يخاف لحظة استيقاظه من النوم. يخاف الطفل مما لا يفهمه ولا يدركه! مع الوقت والتكرار والشعور بالأمان قبل وأثناء النوم وعند الاستيقاظ، يذهب الخوف ويصبح نوم الطفل أمرًا طبيعيًّا.

متى ينتقل الطفل إلى حجرته؟ عندما يكون مستعدًّا! عندما يختار! عندما لا يبكي ولا يجبر ولا يقهر كل ليلة حتى ييأس وينام!

الخرافة الخامسة: يجب أن يذهب الطفل للحضانة (ليتعلم الكلام/ ليكون اجتماعيًّا/ ليستعد للمدرسة).

يتعلم الطفل الكلام عندما يجد من يحدثه بحب واهتمام وبالتفاصيل. يتعلم الطفل الكلام من أهله ومن بيئته المحيطة! لا يتعلم الطفل الكلام في الحضانة إلا إذا كان لا يجد من يحدثه في المنزل.

أما بالنسبة للشق الاجتماعي، هذا أيضًا منبعه المنزل والبيئة المحيطة به. يتعلم الطفل الاجتماعيات والسلوكيات والمجاملات والواجبات والمشاعر في بيته، ومن خلال التفاعل مع عائلته وجيرانه والدوائر المحيطة به.

لقد تحدثت في مقالات سابقة عن النصب باسم التعليم ولن أكرر كلامي هنا، لكن من المهم أن تعرف كل أم أن بكاء الطفل في الحضانة ليس طبيعيًّا، وأن سبب توقفه عن البكاء هو اليأس، لقد يئس الطفل منك!

متى يذهب الطفل إلى الحضانة. عندما يكون مستعدًّا! في عمر عامين أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة، كلما حاولت فصله عنك قبل أوانه فقد ثقته بك وبنفسه!

الخرافة السادسة: يستخدم الطفل الـ«بوتي» عند (عام ونصف/ عامين).

يستخدم الطفل «البوتي» عندما تنضج مثانته وعضلاته ويستطيع أن يبقى بدون الاحتياج

للتبول ساعتين على الأقل. أي محاولة لفرض «البوتي» على الطفل هي انتهاك وسلسلة من الإهانات والاعتداءات!

الخرافة السابعة: أنت أدرى من طفلك باحتياجاته.

طفلك إنسان مثلك وله احتياجات تشبه احتياجاتك ولكن هذا لا يعطيك الحق بافتراض هذه الاحتياجات وادعاء المعرفة بها! ستعرفين احتياجات طفلك عندما تنظرين له وتراقبيه وتفهمي محاولاته للتواصل معك!

الخرافة الثامنة: إنتِ دايمًا صح!

جميعنا نخطئ لكن المهم التعلم من الأخطاء وعدم المكابرة! للتقليل من حجم أخطائك، ضعي نفسك مكان طفلك وحاولي أن تري الموقف من خلاله... كوني عادلة ومحقة وحاولي أن تتفهمي دوافع طفلك واحتياجاته.

الخرافة التاسعة: الأطفال متشابهون!

لا يوجد أطفال متشابهون! الخطوط العريضة قد تتشابه ولكن التفاصيل مختلفة تمامًا! لا يبدأ جميع الأطفال بالأكل في نفس الوقت ولا يحبون نفس الأشياء ولا يأكلون بنفس الكميات. طبقوا هذه القاعدة على الرضاعة والفطام والنوم والاستقلال والاستعداد للحضانة والتعامل مع الغرباء والتعامل مع الأقارب والقدرات والمهارات!

الخرافة العاشرة: الطفل لما ينضرب يتعلم!

لا توجد ضربة خفيفة وضربة جامدة! الضربة الخفيفة مثلها مثل العلقة المميتة. عندما تضرب طفلك فهو يرى ضعفك ويأسك وجهلك! يحتقرك بداخله ويشعر بالنفور منك ومما تحاول أن تعلمه إياه. إذا نظرت له جيدًا وأنت تضربه سوف ترى مدى احتقاره لك!